لماذا هاجر اليهود من المغرب..؟

الحلقة الأولى 1/2

لماذا هاجر معظم اليهود المغاربة من المغرب ما بين سنتي 1950 و 1970 مع العلم أنهم عاشوا به كموطن أصلي أزيد من 2000 سنة؟ عام 1950 كان هناك حوالي 250000 إلى 300000 يهودي بالبلاد و في سنة 1971 صاروا حوالي 35000 أما الآن فعددهم لا يتجاوز 5000، ما هي هذه القوى أو الظروف التي دفعت قوما لمغادرة أراضيهم والتخلي عن تراثهم الثقافي وذلك في ظرف زمني وجيز؟

إعداد: كريم لقمش

يعتمد 30 مليون مغربي آراء متباينة بشأن اليهود المغاربة فرغم أن العديدين يؤمنون بأن اليهود ضروريون لتطور المغرب فهم يعارضون بشدة التضامن اليهودي مع إسرائيل. العديد من المغاربة المسلمين يقومون بزيارات لأضرحة الصالحين اليهود. وبينما يحرص المسلمون على ربط علاقات طيبة مع اليهود ويعاملونهم بكل حرارة، إلا أنهم يتبادلون فيما بينهم العديد من الشتائم حول اليهود. الزواج المختلط أمر نادر جدا. و بعض تلك المشاعر التي تحدثت عنها معبر عنها بشكل واضح من خلال هذه الرسالة التي وصلتني على موقعي الإلكتروني من مغربي بخصوص اليهود المغاربة:

«عزيزي، السيد كولد: كان من عميق امتناني قراءة مواد على موقعكم الألكتروني. مجهوداتكم تلقي الضوء على جزء من التاريخ المغربي الذي يبقى مجهولا للعامة. أعتقد أن

إن النظرة التي يحملها اليهود عن المسلمين هي مرآة لصورة المسلمين عن اليهود. بالنسبة لليهود فالمسلمون هم جيران جيدون و يمكن أن يكونوا شركاء تجاريين

الفرنسي في المغرب والسيطرة عليه. لقد قامت فرنسا بافتعال الخلافات و توسيع شقة الخصام بين المسلمين و اليهود.

4) المغرب الذي كان يقع تحت السيطرة المباشرة لحكم فيشي» بفرنسا جعل اليهود المغاربة مقتنعين بأن السلطان غير قادر على حمايتهم حتى لو أراد ذلك.

5) مع نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت نسبة كبيرة من اليهود يعيشون تحت وطأة الفقر مما دفع العديدين إلى الهجرة نحو التجمعات السكانية الخاصة باليهود والتي تدعى: الملاح من القرى والبوادي المغربية المختلفة.

6) كان للتضامن القومي للعرب مع فلسطين إثر قيام دولة إسرائيل، وكذا إقرار فرنسا لقوانين معاداة السامية دور كبير في خلق أجواء من العداوة والتنافس بين المسلمين و اليهود. لقد أحس اليهود بنوع من الاغتراب عندما رفض وطنيون في صفوف المقاومة التحاقهم بالصراع من أجل الاستقلال.

7)

قادحة للوطن. أتمنى أن يتم القيام بشيء لإبقاء الروابط قائمة بين اليهود وبلدهم المنشأ؛ المغرب.

استمروا بالعمل الجاد وحظا سعيدا في مساعيكم المستقبلية».

إن النظرة التي يحملها اليهود عن المسلمين هي مرآة لصورة المسلمين عن اليهود. بالنسبة لليهود فالمسلمون هم جيران جيدون و يمكن أن يكونوا شركاء تجاريين ممتازين. اليهود يستقبلون المسلمين في منازلهم خلال أعياد 'ميمونة' وهو عيد يهودي مغربي خاص. ورغم ذلك فهم كذلك يتبادلون الشتائم حول المسلمين. وبعض هذا السباب هو نفسه الذي يتداوله المسلمون عن اليهود. لقد عبر 'رابي بينعاروش' ابن مدينة القنيطرة جيدا عن مشاعر اليهود في حوار لمقال بمجلة: « إنه يرى أن لا وجود للعنصرية في المغرب فوالديه وأجداده عاشوا بالمغرب مع المسلمين في كل سلام. يقولون إن بينهم كانت المحبة والأخوة والصداقة وهذا ما يؤمن به 'رابي' «(يونس بنكيران، رابي بنعاروش. كلنا أبناء ابراهيم.كلمة1988).

بما أن 95 بالمائة من اليهود المغاربة غادروا المغرب نهائيا في ظرف 30 سنة فإن لا اليهود ولا المسلمين يقولون الحقيقة كلها بشأن العلاقات بينهما. لفهم قضية اليهود المغاربة علينا فهم مصالح الجماعات اليهودية والعربية والأمازيغية وكذا مصالح الجماعات الصهيونية والعلمانيين والاستعماريين كما عبر عن ذلك أحد المحللين: «لا يمكن مقارنة تاريخ اليهود المغاربة بتاريخ اليهود الأوربيين. بل عليك وضع المسالة في نطاقها الصحيح. فالآراء المتفائلة لا تقدم تفسيرا للهجرة كما أن الآراء المتشائمة لا تفسر سبب بقاء الآلاف بالمغرب. كون الهجرة تمت على 30 سنة يعني أن كلا التفسيرين على خطأ.» (شمعون ليفي. المجتمع اليهودي في تاريخ المغرب في : « يهود المغرب: الهوية والحوار.1980)

1) علاقات متوترة مع المسلمين،عربا وأمازيغ زاد من وطأتها وقوع المغرب تحت الأطماع الامبريالية في منتصف القرن التاسع عشر. كما أن انشغال القوى الشعبية والدولة، الضعيفة أصلا، منع السلاطين المغاربة من توفير الحماية لليهود.

2) لإرغام المغرب على الخضوع لنظام الحماية قدمت فرنسا تبريرات عديدة من بينها الاستجابة لادعاءات بعض المنظمات اليهودية غير المغربية بشأن وجود اضطهاد لليهود المغاربة وسوء معاملة.

3) قامت فرنسا بتشجيع العلمنة في صفوف الجالية اليهودية وسلخهم عن الهوية المغربية بغية اكتساب تعاطفهم مع القيم الليبرالية وذلك من أجل تقوية الوجود

1) اليهود في عهد الدولة العلوية

تعود أصول الدولة العلوية الحاكمة في المغرب إلى أسرة من العرب تنحدر من النبي محمد، مما يعطيهم السلطتين الدينية والدنيوية على حد السواء. يمتد الحكم العلوي إلى ستينيات القرن السابع عشر. وإلى حدود نهاية القرن الثامن عشر، وباستثناء سنوات قليلة، كانت الحماية متوفرة لليهود من العنف، رغم أن ضرائب مرتفعة جدا كانت مفروضة عليهم. والقلة القليلة من اليهود فقط من كان مسموحا لها بالتحكم بالتجارة الخارجية. بل وصل الأمر إلى درجة أنهم كانوا في وقت من الأوقات المصدر الرئيسي لكل الضرائب التي يجبيها السلطان.

كانت العلاقات بين المسلمين واليهود يطبعها كنف من الغموض والتناقضات، الحقد والصداقة، الخصام والوئام، الأمان وشروط مجتمعية هشة. العديد من اليهود كانت لديهم أحاسيس بالعزلة الاجتماعية، لكونهم منعزلين في أحياء الملاح الفقيرة حيث كان الحاخامات واليهود الأثرياء يمارسون سيطرة تامة على كافة مناحي حيواتهم. لقد حرصوا دوما على مسؤولية تأمين الشروط العامة للحصول على الحماية وضمان التزام يهودي الملاح ببنودها كذلك وهكذا ضمن المتنفذون من الجالية اليهودية الأمن و الطاعة والنظام. وقد كان من مهامهم مثلا مراقبة سير المحاكمات التي تكون في حق أفراد من الجماعة اليهودية في القضايا المدنية كما أنهم كانوا يسعون بالصلح بين أفراد الجماعة في حال نشب خلاف بينهم إضافة إلى قدرتهم على رفع بعض القضايا إلى 'القائد' المسلم. خلال فترة الحماية الفرنسية لم تكن السلطات الاستعمارية تختار إلا الأغنياء لتمثيل عموم اليهود في عضوية اللجان المنبثقة عن الجماعات اليهودية بالمغرب.

وكما قال أحد المعلقين : « اليهود والمسلمون تعايشوا وتناسلوا متقاسمين نفس القيم الحضارية رغم وجود العديد من المشاكل. عموما يمكن القول إن خمسة قرون من العيش المشترك كانت في مجملها إيجابية. لقد تعلم المغاربة أن يكونوا متسامحين وأن يتحاوروا للبحث عن التوافق. على العموم كان المسلمين مؤدبين اتجاه اليهود وكانوا يتبادلون معهم الزيارات. و بالرغم من حدوث الكثير من الحوادث الفظيعة والمواقف التحقيرية في حق اليهود إلا أننا يمكننا القول بكل ثقة إن اليُهود عاشوا تحت حكم المسلمين أفضل من عيشهم في كنف المسيحيين.» ('مارك كوهين' من كتابه: المفاهيم الجديدة للتباكي على تاريخ اليهود و العرب' المجلد السادس).

لقد لعب اليهود دورا مهما في زرع الفرقة بين الأمازيغ والعرب. إذ كان على اليهود لممارسة التجارة الرحيل من المدن التي كانت تقع تحت حكم السلطان وتضم غالبية عربية إلى القرى والبوادي التي تقع خارج سيطرة السلطان والتي يغلب عليها الطابع الأمازيغي. وقد كان على اليهود تأمين أنفسهم من كلا الجانبين وتأمين تجارتهم. وعليه وفي ظل أجواء الصراع العرقي التي كانت سائدة آنذاك بين العرب والأمازيغ، فقد صار مع مرور الوقت من العيب أن يتم الاعتداء على تاجر يهودي وكانت حمايته شكلا من أشكال الشهامة. لم يكن ممكنا أن يأمر « المعلم» أو كبير التجار المسلمين برابرة وعربا بالاعتداء على التجار اليهود لأن ذلك سيكون بمثابة خزي كبير في حقه. ولكي يتم التعرف عليهم وتمييزهم كان التجار اليهود يمنحون قطعة مميزة من القماش تحميهم أثناء السفر والترحال. أما الخدمات التي كانوا يحملون معهم فتركزت في قرض الأموال وخدمات أخرى متعلقة بالمهارة الحرفية.

في شهر فبراير عام 1860 كانت إسبانيا تحضر لاجتياح تطوان في خضم جهودها الرامية إلى توسيع نفوذها السياسي، فما كان من القبائل والجنود غير النظاميين إلا مهاجمة الملاح للاحتجاج على خنوع السلطان أمام الإسبان. وتم نهب المدينة بأكملها مع حلول اليوم الموالي لمنع الإسبان من الاستيلاء على ثروات اليهود. بعد إعادة تطوان إلى الحكم السلطاني عام 1862 أحست الجالية اليهودية بالخوف من حصول الأمر مجددا خصوصا وأن العديد من التجار اليهود كانوا على علاقات طيبة بالإسبان. هذا ما دفع الأوربيين إلى استغلال هذه المشاعر لتشجيع السلطان على حماية اليهود في تطوان وفي كافة ربوع الوطن لأنهم كانوا يرون في اليهود حلفاء محتملين لزيادة السيطرة الأوربية على المغرب ماليا،تجاريا، وسياسيا. وفي سنة 1864 وعلى إثر شكاوى بتعرض اليهود لسوء المعاملة، التقى 'موسى مونتيفيور'، قائد المجمع اليهودي البريطاني السلطان محمد الرابع من أجل تأمين الحماية للساكنة اليهودية. و أمضى السلطان الوثيقة التالية: « نطلب من كل خدامنا،الولاة والقواد، وكل من يتحمل المسؤولية، أن العطف والرعاية ستشمل الرعايا اليهود المقيمين داخل إمبراطوريتنا، والله أمرنا بهذا. نتمنى أن يتم التعامل معهم بالعدالة وعدم التمييز والانحياز وأن يكونوا سواسية أمام القانون. ولا يجب أن يتم تعريض أحد منهم إلى أي ظلم من أي نوع كما لا يجب أن لا يتم تعريضهم للأذى بأي شكل من الأشكال أو ينم سلبهم ممتلكاتهم و متاعهم. و لن يتم إرغامهم على أداء واجباتهم اتجاه الدولة باستعمال العنف أو سوء المعاملة لأننا مع نهاية حيواتنا سنكون موضع مساءلة بخصوص أي شكل من أشكال ظلم نوقعه على رعايانا من اليهود. ولن نسمح بأي أعمال شريرة تستهدف اليهود أو أي فئة أخرى فنحن نضع كل رعايانا بمقام من الاحترام على اختلاف انتماءاتهم وسوف نحرص برعاية الخالق على معاقبة كل من ثبت في حقه أنه تجرأ و عمل بسوء ضد أي منهم. هذا الأمر وكل ما يتفرع عنه صدر بأمر منا وعزم وإصرار ويجب أن يشكل بالنسبة لرعايانا اليهود ضمانة ضد أي شكل من أشكال الظلم التي يمكن أن يتعرضوا لها من قبل الذين يقصدون الإساءة لهم» (من كتاب 'المغرب:دليل و تاريخ لـ'نينا بانون).

القناصلة الأوربيون الذين حصر السلطان إقامتهم بمدينة طنجة الشمالية عرفوا من جهتهم كيف يستغلون المسألة اليهودية للضغط على السلطان من أجل تقديم تنازلات اقتصادية، و هكذا حاولوا السهر على تطبيق ما جاء بوثيقة السلطان في محاولة لجعله يستجيب لضغوطات الأوروبيين بتحرير المبادلات التجارية. من جهة أخرى كانت النخبة اليهودية بالمغرب بالنسبة للقوى الأوربية ذات ضرورة قصوى لتيسير أمور التجارة بالمغرب خصوصا أن التجار الأجانب لم يكن مسموحا لهم آنذاك بالدخول إلى المدن الداخلية و كانوا ملزمين بممارسة نشاطهم التجاري بالمدن الساحلية فقط، وبالتالي كان اليهود هم من يقومون بإكمال الدورة التجارية بحملهم البضائع إلى الأسواق الداخلية. وكانت السفارات الأجنبية بطنجة تعتمد اليهود كممثلين تجاريين لديها بموانئ المدن مقابل إدماجهم ضمن قوائم المحميين الرسميين. ومن المعروف أن هؤلاء المحميين كانوا معفيين من الضرائب ومحصنين ضد المتابعة القضائية. و قد كان هناك حوالي 6000 'محمي' سنة 1890 في كل أرجاء المغرب وكان معظمهم من اليهود مما جعلهم موضع كراهية من قبل المجتمع لكونهم معادين للسلطان ومتحالفين مع الأوربيين. وكان المحميون يتهمون باستغلال وضعهم الخاص لنهب المستدينين منهم، وكان على السلطان في نهاية المطاف تأدية كل الديون عنهم.و هذا ما ساهم في إفلاس المملكة.وعملت المنظمات اليهودية بالخارج،مدعومة من القوى الأوربية، على محاربة جهود السلطان الرامية إلى ممارسة السلطة على المحميين. وكانت مجهودات الأوربيين لدفع المغرب نحو الإفلاس قد جاءت متزامنة مع ادعاءات لمنظمات يهودية أجنبية تفيد تعرض اليهود بالمغرب للاضطهاد وسوء المعاملة اللاإنسانية. و بموازاة مع تركيزهم على تعزيز نفوذ المحميين فإنهم عملوا كذلك على إظهار حجم الإساءة التي كان يتعرض لها رعايا السلطان من اليهود. وقد استغلت القوى الأوربية هذه الادعاءات لتشويه صورة السلطان و تمهيد الطريق نحو السيطرة الاستعمارية. ولكن الولايات المتحدة في إطار جهودها لمعاكسة التوجهات الأوربية الاستعمارية، اكتشفت أن وضعية اليهود على العكس من ذلك قد تحسنت بشكل ملحوظ مع نهاية القرن 19 وبداية القرن 20. و في سنة 1905 خلص فريق تفتيش حكومي أمريكي إلى غياب الأدلة التي تثبت ادعاءات بعض المنظمات اليهودية الأمريكية بشأن وجود أشكال من الاضطهاد تمارس ضد اليهود المغاربة.